مرايا عبدالعزيز حمودة المقعرة

حداثة الانبهار بالعقل الغربي !!

جهاد فاضل
- لبنان -

قد يكون كتاب « المرايا المقعرة » للدكتور عبد العزيز حمودة الصادر حديثاً في سلسلة « عالم المعرفة » الكويتية أحد أهم الكتب الأدبية والفكرية العربية التي صدرت في الحقبة الحديثة . ذلك أن الكتاب لا يهدف فقط إلى رد الاعتبار للبلاغة العربية وحدها ، بل وأيضاً إلى قيم ومفاهيم ومصطلحات كثيرة فقدت معناها أو جرى تشويهها على مدى ربع القرن الماضي ، على أيدي من يسمون « الحداثيين » الذين أساؤوا أيما إساءة ليس إلى الحاضر الأدبي وحده، بل إلى الماضي التراثي ، بوجه خاص.

يخلص المؤلف عن طريق قراءة جديدة للتراث البلاغي العربي ، قراءة لا تهدف إلى تأسيس شرعية الحاضر الحداثي كما فعل البعض ، بل شرعية التراث ذاته ، إلى أن البلاغة العربية قدمت نظرية لغوية ونظرية أدبية تشهدان بعبقرية العقل العربي . ثم أنهما لو لم يمارس الحداثيون شعار القطيعة مع التراث ، كان من الممكن تطويرها إلى مدرستين لا تقلان تكاملاً ونضجاً عن المدارس اللغوية والأدبية الغربية التي انبهر بها البعض طوال القرن العشرين. إن قراءة المؤلف الدكتور عبدالعزيز حمودة تثبت أنه لا تكاد توجد قضية لغوية أو أدبية حديثة أو معاصرة لم تتوقف عندها البلاغة العربية في عصرها الذهبي. وبصورة مثيرة للإعجاب والعجب. الكتاب مملوء بملاحظات ذكية تتناول آراء حداثيين كثيرين لم تصمد مع الوقت ، بل سقطت. يضع د.شكري عياد يده على « ثقافة الشرخ » (والشرخ هنا هو التوتر المستمر بين الجذور الثقافية العربية والثقافات الغربية التي اتجه إليها المثقف العربي بعد عصر التراجع والانحطاط) حينما وصف الحداثيين العرب بأنهم أناس يعيشون بأجسامهم في مصر ، ويعيشون بعقولهم ومشاعرهم في أوروبا. (أويتوهمون ذلك). لا يحمل المؤلف على الحداثة والتحديث ، فهما مشروعان في ذاتهما ، ولكنه يحمل على « الانبهار » بالعقل الغربي ، وعلى « احتقار » العقل العربي. فعنده أننا أخطأنا حينما حوّلنا صفقة « التحديث » التي تعني الحفاظ على منجزات العقل العربي مع الاستفادة من منجزات العقل الأوروبي في العلوم والتكنولوجيا ، إلى صفقة حضارية وثقافية شاملة. وتحولنا من الانتقاء الذكي من ثمرات الحضارة الغربية إلى الارتماء الكامل في أحضان ذلك الآخر. « أخطأنا حينما ربطنا بين التحديث وإدارة ظهورنا بالكامل لمنجزات العقل العربي ، وهو ما يسمونه بلغة الحداثيين البرّاقة: القطيعة المعرفية مع الماضي. على أساس أن الحداثة لا تتم إلا بتحقيق القطيعة المعرفية مع التراث . وباختصار مؤلم ، أخطأنا حينما جمعنا بين الانبهار بالعقل الغربي ومنجزاته ، وبين احتقار العقل العربي والتنكر لمنجزاته . والتقليل الكامل من شأنها». التطوير والتحديث هما عند المؤلف جوهر الرد المنطقي على الدعوة الحداثية لتحقيق قطيعة معرفية مع الماضي . وهذا على وجه الدقة هدف وموضوع الدراسة الحالية ، إذ إن الحداثيين وغير الحداثيين العرب ، منذ السنوات المبكرة من القرن العشرين ، أداروا ظهورهم للتراث العربي بدرجات متفاوتة بالقطع. وفي العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وصلت الدعوة إلى القطيعة المعرفية مع التراث إلى ذروتها ، كأن الحداثيين العرب في الوقت الذي وقفوا فيه طويلاً أمام المرايا المحدبة ، فصدقوا وهم فخامة إسهاماتهم ، قد وضعوا التراث الفكري والنقدي العربي أمام مرايات مقعرة قامت بتصغير إعجازات العقل العربي والتقليل من شأنها. يتوقف المؤلف في بعض صفحات كتابه عند نشاط المخابرات

د. عبدالعزيز حمودة

الغربية البريطانية والأمريكية ، ليقول :«وما علاقة كل هذا بالحداثة عامة والحداثيين العرب خاصة؟ هل معنى ذلك أن المخابرات الغربية شجعت عن طريق التمويل التيارات الحداثية في الفنون والآداب والنقد». ويتحدث عن كتاب لفرنسيس سوندرز ، وعن «رابطة حرية الثقافة» ويخلص إلى القول: إن الحداثة الغربية لم تكن بالبراءة التي تصورها البعض ، وأنها الحلقة الأخيرة في سلسلة الهيمنة والسيطرة على مقدرات الشعوب المقهورة. ثم إن «أنشطة الحداثيين العرب واتجاههم الحداثي كان تمهيداً إرادياً لهيمنة الثقافة الغربية ، وبتمويل من المخابرات الغربية في أحيان كثيرة». في الصفحة ٨٣ من الكتاب يتحدث المؤلف ، نقلاً عن مستندات كتاب سوندرز ، عن أنه كان لرابطة حرية الثقافة عدد كبير من المكاتب أو المقار في أوروبا وأمريكا اللاتينية وآسيا ، وأن أول هذه المكاتب في العالم العربي بدأ في لبنان. وفي مرحلة لاحقة من العقد نفسه ، افتتح مكتب آخر في القاهرة . ومن بين خطط تلك الرابطة من البداية ، كان «توفير أبواق للتعبير الحر» للجماعات التي تتعامل معها. وهكذا بدأت في افتتاح عدد من المجلات والدوريات بتمويل كامل من المخابرات الغربية بهدف تمكينها من «التنفس». وقصة مجلة «حوار» التي افتتحت في بيروت كنسخة عربية مقابلة للمجلة اللندنية المبكرة «انكاوتر» في أوائل الستينات إلى أن اضطرت لإغلاق أبوابها بعد أن افتضح أمرها ، هذه القصة معروفة للمثقفين في مصر . لكن مسألة مجلة أخرى تحتاج إلى وقفة أكثر أناة لارتباطها المبكر بتيار الحداثة في العالم العربي ، ونقصد بها مجلة شعر البيروتية والتي لا يكل الحداثيون العرب عن تذكيرنا أن الحداثة العربية بدأت مبكراً معها وليس مع مجلة فصول المصرية. «ليس موضوعنا الآن إذا كانت الحداثة قد بدأت «بشعر» ثم كُشفت مع «فصول» ، لكن موضوعنا هو محاولة التأسيس لعلاقة «شعر» على وجه التحديد بالمخابرات الغربية دون أن يعني ذلك بالضرورة ، بل بأي صورة من الصور ، اتهام أحد بالعمالة ، خاصة إذا تذكرنا أن أجهزة المخابرات الغربية لم تكن تجند عملاء لها في المناطق المختلفة من العالم ، بل تمول الأنشطة المناوئة للتغلغل الشيوعي في مناطق الفراغ التي خلفتها الحرب وراءها». وبعد أن يتحدث المؤلف عن ظهور مجلة شعر في بداية ١٩٥٧م والظروف التي أحاطت بها والتي تشي بعلاقة وثيقة مع رابطة حرية الثقافة ، ويتساءل عما إذا كان بعض الحداثيين العرب قد فهموا الحداثة الغربية حقيقة ، ينتقل إلى أن القول بعجز العقل العربي عن تطوير نظرية لغوية يعني قبول الاتهامات التي يوجهها المستشرقون للغة العربية باعتبارها لغة جامدة محنطة عاجزة عن التعبير عن الفكر الجديد ، وهو ما يرى به محمد عابد الجابري ، في «تكوين العقل العربي» ، سيراً على طريق اتهامات الاستشراق ، أنها عاجزة عن مواكبة الثورة الفكرية الحديثة كما يقول زكي نجيب محمود في «تجديد الفكر العربي». ويتساءل المؤلف أليست اللغة العربية التي نستخدمها اليوم ، والتي يرى البعض أنها قاصرة عن التعبير عن الثورة الفكرية المعاصرة ، هي نفسها اللغة التي عبرت عن الثورة الفكرية العربية في مجالات الرياضيات وعلوم الفلك والطب والفلسفة وتم نقلها إلى الثقافات الغربية عبر قنوات كثيرة ، أبرزها الوجود العربي في الأندلس ، لتسهم في تحقيق النهضة الأوروبية؟ أليس هذا الاتهام في حد ذاته ، ثم استمراره ، تناقضاً جوهرياً مع الفكر اللغوي الأوروبي الحديث ابتداء مع دراسات سوسير حتى اليوم؟ ألا يجمع هذا الفكر اللغوي الحديث على عدم الفصل بين اللغة والفكر ، وأن تشكيل الفكر دون اللغة أمر مستحيل ، وأن فكرة الإنسان هو لغته ، ولغته هي فكره؟ وإذا كان هناك قصور ، إذن ، فهو ليس قصور اللغة العربية في حد ذاتها ، بل هو قصور الفراغ الفكري ، أي أننا حينما استغرقتنا عملية استهلاك فكر الآخر ، ولم نعد ننتج فكراً خاصاً بنا ، قدمنا لغتنا في حالة قصور وعجز. يرى الدكتور عبدالعزيز حمودة ، أن تطوير نظرية لغوية ونقدية عربية ، يتطلب القيام بعملية غربلة دقيقة وتنقية واعية لتراثنا اللغوي والنقدي من كثير من تناقضاته وتداخلاته قبل أن نضع أيدينا على مفردات تلك النظرية . كما يرى أن ما أنتجه العقل العربي عن الطبيعة الإبداعية للأدب ، وبرغم كل ذلك الانشغال الواضح بالفكر اليوناني في الشعر والخطابة والمنطق ، تخطى بمراحل كثيرة كل ماكتبه أرسطو حول الطبيعة الإبداعية للمحاكاة ، وبصورة تجعل من الظلم البين إرجاع إنجازات البلاغة العربية إلى التأثير الأرسطي ، كما يقول البعض . ويختم بالقول: إن الثقافة العربية لم تكن مفلسة ،ولم يكن العقل العربي قط ، متخلفاً . كل ما حدث أننا في انبهارنا بإنجازات العقل الغربي وضعنا إنجازات البلاغة العربية أمام مرايا مقعرة صغرت من حجمها وقلّلت من شأنها . الكتاب يفضح ضلالات كثيرة حول ثقافتنا العربية القديمة والحديثة . يفضح اعتماد الغموض منهجاً . يكشف الزيف الذي ساد طويلاً تحت شعار الحداثة ، ويؤلف فعل إيمان بأصالة التراث العربي وعبقريته.

د. شكري عياد

---

* جريدة الرياض- السعودية،الأحد٢٤رمضان١٤٢٢هـ ، ٩ ديسمبر ٢٠٠١م.